

ترياق القمر ...

كانت الليلة هادئة في ظاهرها، لكن البحر في أعماق طارق لم يكن كذلك .
كان القارب الصغير يشق الماء بسرعة حادة، يندفع للأمام بارتجاجات عنيفة كأنه يحاول الانفلات من جاذبية الذكريات.

الموج يتكسر تحت جسد القارب بصخب، وراذ الملح يلسع وجه طارق، يسحب أنفاسه وتعيدها الرياح إليه محملة ببرودة الوحدة.

كان واقفاً عند الحافة، يضغط بأصابعه المرتجفة على الخشب المتآكل، وعيناه غائرتان تبحثان عن نقطة ضوء في هذا السواد الممتد.
منذ ليالٍ طويلة، وجفناه لا يلتقيان.

الإرهاق لم يكن في جسده... بل في ذلك الثقل الذي يربض فوق حنجرتيه ويمنع صرخته من الخروج.
خلفه، كان القبطان العجوز ممسكاً بعجلة القيادة الخشبية بقوة، يصارع الأمواج بكتفين ثابتتين، عيناه مثبتتان على الأفق وصمته مريب، وكان هذا الهياج في السرعة واختراق حجب الظلام هو الطريقة الوحيدة للوصول إلى نهاية الطريق.
وفجأة.. هداً كل شيء ...

بصدمة غير متوقعة، انطفأ صرير المحرك وتلاشت اهتزازاته المزعجة تحت أقدام طارق...
انزلق القارب فوق سطح الماء كأنه ينساب على الحرير، بلا مقاومة وبلا صوت.
رفع طارق رأسه بصعوبة، فرأى السماء وقد انشقت غيومها عن قمر عملاق، بدرٍ مكتمل يسكب فضته فوق بقعة وحيدة من البحر.. بقعة كان القارب يتوسطها الآن تماماً بعد توقفه المفاجئ.
تجمد طارق.

شعرَ بخوفٍ يزحف إلى أطرافه مع هذا السكون المطبق. التفت بجسده نحو الخلف، ورأى القبطان يترك عجلة القيادة ببطء، ويسند ظهره إلى المحرك الصامت.

سأل طارق بصوت متحشرج: ما الذي يحدث؟ ... لماذا توقفنا هنا؟

لم يتحرك القبطان من مكانه، بل قال بصوت كأنه يخرج من باطن الأرض:

"أحياناً.. لا تهدأ الأشياء من حولك، إلا لتضطررَ لسماع الضجيج الذي يسكنك."

هزَّ طارق رأسه برفضٍ عصبى، مترجعاً للخلف: لا أريدُ سماع شيء، أريدُ فقط أن نصل !.

لكنَّ القبطانَ تابعَ بوقارٍ، مشيراً بيده نحو بقعةِ الضوء: "هذا المكانُ لا يظهرُ لأيِّ أحدٍ، يظهرُ فقط حينَ يثقلُ القلبُ بما لا يُقالُ.

انظرُ إلى أشعةِ القمرِ يا بني، إنها لا تهبطُ عبثاً...

إنها تفتشُ عن القلوبِ التي أنهكها الحنينُ...

تتسللُ إلى أعماقِ النفسِ المظلمةِ لتضيءَ عتمتها، ثم تمسكُ بيدها لترشدَها إلى قلبٍ يشبهُها.. أنتَ الآنَ في مثلثِ تيهِ القلوبِ؛ حيثُ يلتقي الماضي بما تمنيتُهُ، والحاضرُ بما فقدتَهُ.

انخفضتُ عينا طارق إلى الماءِ... قاومَ الرؤيةَ في البداية... لكنَّ خيوطَ القمرِ كانتُ أقوى.

تنفَّسَ بصعوبةٍ، وشعرَ بتلكَ الغصةِ في صدره تبدأ بالذوبانِ تدريجياً...

لم يعد الثقلُ قيدياً، بل صارَ دمعاً تترقرقُ في عينيه ...

قالَ القبطانُ أخيراً: "انظرُ إلى انعكاسِك.. لا تبحثُ عن ملامحِك التي غيرَها الحزنُ، بلِ ابحثُ عن الضوءِ الذي يسكنُ قلبَك الآنَ."

انحنى طارق بجسده فوق الحافةِ، مدَّ يده نحو الماءِ كأنَّهُ يحاولُ لمسَ حقيقةٍ هاربةٍ.

لم يجدَ وجههُ القديمِ، بل وجدَ خيطاً من نورِ القمرِ يغوصُ في العمقِ كصنارةٍ تسحبُ أثمنَ ما ضاعَ منه. وفجأةً، رأى قلباً نابضاً بالضياءِ يطفو.. كانَ له وهجُهُ غريباً، ملامحُهُ لم تكن واضحةً، لكنها كانتُ تفيضُ بوعودٍ لم يقرأها في كتبِ الماضي.

لم تكن صورةً لمن عرف، بل كانتُ صكاً للأملِ في مَنْ سيَعرف. قلبٌ ينتظرُهُ هناك، في الضفةِ الأخرى من هذا التيهِ.

سكنتِ الرياحُ تماماً، وانعدمَ وزنُ الألمِ.

شعرَ طارق أنَّ القاربَ يرتفعُ عن سطحِ الماءِ، ليسبحَ في هالةِ القمرِ نفسه. التفتَ بلهفةٍ ليبحثَ عن القبطانِ، ليخبرَهُ أنه رأى الفجرَ في قلبِ الظلامِ، لكنه لم يجدَ أحداً خلفَ عجلةِ القيادةِ.

كانَ القاربُ فارغاً، والمحركُ بارداً ومغطىً بغبارِ السنينِ، كأنَّهُ لم يعملَ منذُ دهرٍ.

كانتُ لحظةً صاعقةً؛ أدركَ فيها أنَّ القبطانَ لم يكنْ سوى صوتِهِ الذي لجمَهُ الخوفُ، وأنَّ البحرَ لم يكنْ إلاً مرايا روجه التي قررتُ أخيراً التوقفَ عن الهربِ ...

أغمضَ عينيه بسلامٍ. ولأولِ مرةٍ منذُ ليالٍ طويلةٍ، نامَ مبتسماً على ضوءِ الأملِ الجديدِ، بينما القاربُ يذوبُ تماماً في الضياءِ، متحرراً من ثقلِ الأرضِ ومرارةِ الذكرى، ليبقى نبضُ قلبِهِ هو ترياقُ الحياةِ الوحيدُ في أملٍ جديدٍ.

بقلم: أسامة إبراهيم

[رؤى كَاتِب] الإسكندرية / (مايو ٢٠٢٦) جميع الحقوق الأدبية محفوظة ©